الحركة الموحدية الإصلاحية بين المفاهيم الدينية والصراعات السياسية

الدكتور يوسف عابد
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ــقسنطينة

الملخص:

ظهرت رغبة سكان بلاد المغرب السياسية في تغيير حكام بلادهم منذ نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري – الثامن الميلادي وذلك على شكل ثورات وانتفاضات على الولاة العرب الوافدين.

وانطلقت من أبعد نقطة عن مركز نظام الحكم (القيروان) في بلاد المغرب. وهي بلاد السوس بالمغرب الأقصى، وقد شهدت المنطقة حين ذاك تنوعا قبليا (برغواطة، زناتة، ...صنهاجة ...الخ). هذا مع تنوع ديني نصرانية، يهودية، إسلام، وكان السكان جميعا محافظين ومتمسكين بالأعراف والتقاليد السائدة في الوسط الاجتماعي الريفي و الحضري، الأمر الذي عمق سوء فهم أحكام الشرع الإسلامي.

مما أتاح الفرصة أمام السحرة والمشعوذين وأدعياء النبوة للظهور في هذه البيئة الدينية التي عرفت انتشار دعوة حركة الموحدين الإصلاحية.

Abstract:

The people of the Maghrib felt the political need for a change of the rulers of their countries since the end of the first quarter of the second century of the Islamic calendar- the 8th- C.A.D.- this need for a change took the form of revolutions and uprisings against the visiting arab governors.

This social and political unrest started in a place which is farthest from the centre of the power system- Cairouan- in Morocco. At that time, the whole region underwent a tribal renewal- Berghaouate, Zenata, Sanhaja, etc…-. In parallel, there was also a religious renewal: Christian, jewish, Islamic. All the people were conservative and close to the customs and traditions which existed in the rural and urban areas. As a consequence, the misunder standing of the Islamic legal rules deepened. That was an opportunity for sorcerers, charlatans and self- proelaimed prophets to appear in this religious environment where the activity of the movement for reform and unification expanded more and more.

عرض الموضوع:

عرفت أقاليم المغرب الأقصى انتفاضات سكانية منذ الربع الأول من القرن الثاني الهجري (122-740)[1] معلنة رفضها لأسلوب نظام الحكم الذي أسسه الفاتحون المسلمون، واتخذوا من الإسلام مفاهيم خاصة بهم. يعتمدون عليها في معارضة من يريد حكم بلادهم، ويعكسون رغبة مؤكدة في إضفاء طابع محلي على معتقداتهم في مجالات الحياة العامة.

ومن بين أهم الأقاليم التي عرفت تنوعا مذهبيا وجغرافيا إقليم السوس الأدنى والذي عُرف أيضا باسم تامسنا والذي أصبح جزءا من مملكة فاس[2] وكانت حدوده تنحصر بين نهر أبي الرقاق في الشمال ونهر أم الربيع في الجنوب وبين المحيط الأطلسي في الغرب وجبال الأطلس في الشرق[3] وبغض النظر عن تغيرَ مساحته اتساعا وانكماشا فإنه كان إستراتيجيا وقد يكون موقعه هذا سببا في إنشاء عواصم المغرب الأقصى بالقرب منه[4].

ومع أهمية موقعه هذا فقد تنوعت القبائل البربرية التي سكنته، ومن أشهرها قبيلة برغواطة المصمودية، وإلى جانبها سكنت قبائل من زناتة، وصنهاجة، وهوارة، ومطماطة،

---

[1]- بدأت الثورة في إقليم طنجة (السوس الأدنى)، الرقيق لبقيرواني، تاريخ إفريقية والغرب، تحقيق ونشر المنحى الكعبي طبع تونس 1967، ص 110.

[2]- الابكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والغرب، الجزائر 1967، ص 161.

[3]- ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط 1973، ص 136.

[4]- فمدينة فاس بنيت سنة 162هـ/808م، ومدينة مراكش التي بناها المرابطون عام 454هـ/1062م وكانت عاصمة لهم، ومدينة الرباط التي بدأ الموحدون في بنائها عام 545هـ/1150 (ابن سعيد المغربي، بسط الأرض، تطورات 1958، ص 72 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص 26..

وكانت الزَعامة البرغواطية تدين بخليط من المعتقدات منها المجوسية واليهودية والنصرانية والإسلام[1]. ومعنى ذلك أن غالبية السكان من البربر اعتنقت الإسلام خلال القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي، أما أقليتهم من اليهود والنصارى فقد ظلوا على معتقداتهم. ويفهم من قول الحسن الوزان أن سكان هذا الإقليم كانوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم هي اللغة الإفريقية[2]، ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم للعرب وعلاقتهم معهم.

ويبدو أن ترجمتهم للشعائر الدينية وبعض السور والآيات القرآنية إلى لغتهم قد زاد الخلط والخروج عن فرائض الإسلام، وزاد من عدد الأتباع الذين وجدوا في ما جاء به البرغواطيون يحقق لهم رغباتهم، فتمدد شعبهم ليتواصل مع قبائل أخرى مثل زناتة، وبعض من صنهاجة، وأهم القبائل التي انضوت تحت لوائهم واتبعتهم في مذهبهم قبائل جراوة، وزواغة ومنجصة، وبني أبي نوح[3].

وقد انتقلت فكرة إدعاء النبوءات إلى الأقسام الشمالية من بلاد المغرب فقد عرفت قبيلة غمارة توجهات مماثلة لِما انتشر في بلاد تامسنتا، واستفحلت فيها أحوال الرَدة وتكرار ظهور النبوءات، فقد تنبأ فيهم حاييم سنة 414هـ/1018م وشرّع لهم ديانات مستوحاة منه العقائد البرغواطية ثم جاء نبي آخر مزعوم هو عاصم بن جميل وبعده مرزدغ الغماري سنة 559هـ/1164م، وهكذا يظهر جليا أن منطقة الشمال المغربي عرفت صورا خاصة من أحوال المروق عن الدين، وظهور المغامرين باسم الدين والذين يثيرون الفتن

---

[1]- ابن عناري، البيان، ج1، ص 66.

[2]- اللغة الإفريقية التي يقصدها الحسن الوزان هي "أول أمزيغ" أي الكلام النبيل والتي تسمى البربرية: وصف إفريقيا، ج1، ص 39.

[3]- المراكشي، المعجب، ص 14-16.

الدينية، غارقين في انحرافات أخلاقية ودينية مدعمة بأفكار مستوحاة من السحرة والمشعوذين.

ولم تكن مدينة سبتة بعيدة عن هذا الحراك الاجتماعي ذو الأساس الديني فقد كانت سبتة تملك هوية دينية متواصلة بالأساس مع الأندلس بذلك عاشت تشكل هاجسا للدولتين المرابطية والموحدية، وعرفت ما يشبه الاستقلال الذاتي[1].

لقد كانت البيئة الدينية في بلاد المغرب مضطربة لا تكاد تتخلص من موجة مذهبية حتى تعود لاستقبال أخرى، فهذا المذهب خارجي وقد خفَت حدته وقلّ أتباعه بالمغرب الأقصى ومع ذلك وقعت انتفاضة على بن رزين الجزيري سنة 579هـ/1184م وانظم إليه خلق كثير، ظهر في بداية أمره بمراكش ثم توسع نحو الشمال[2].

وعلى الرغم من مرور خمسة قرون على انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب فإن أحوال الخوارج بمجالاتهم المعروفة لم تتغير كثيرا، وشهد على ذلك التجاني بقوله: "ولا زالت تتقاسمهم مذاعب الوهبية والنكارية، لا يؤاكلون الغريب في آنيتهم، وإن استقسى عابر سبيل ماء بعض آبارهم، استخرجوا ماء البئر كله لتطهيره، ولا يزالون تاركين صلاة الجمعة لاشتراطهم وجود الإمام العادل لإقامتها[3]، وهذا يدل بوضوح على حجم العمل الدعوي والتعليمي الذي تتطلبه البيئة الدينية خاصة في معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة وسجلماسة لأن سكان هذه المناطق يتحفظون على أفكار أهل السنة بغض النظر عن صدقهم وتجردهم. فقد أدخل المصامدة عوامل أخرى في تقييم أهل السنة

---

[1]- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 228.

[2]- لين عزاري، البان الغرب، ج3، ص 141.

[3]- التجاني ورحلته، ص ص 140-145.

وطاعتهم كالمستوى الحضاري، والاقتصادي[1] حيث كان المصامدة يمثلون البربر المستقرين والمزارعين، وأن الصنهاجيين صحراويين متخلفون وافدون على مجالاتهم[2].

إن أحسن من قدم وصفا عن البيئة الدينية التي ظهرت فيها حركة الموحدين هو الإدريسي إذ يقول: "أهل السوس فرقتان، فأهل مدينة تارودانت[3] يتمذهبون بمذهب الإمام مالك وهم حشوية، وأهل بلد تويوين يقولون بمذهب موسى بن جعفر (أي شيعة) وبينهم أبدا القتال والفتنة وسفك الدماء[4].

ومن المسائل التي أربكت البيئة الدينية التي شكلتها القبائل البربرية منذ بداية عهد المرابطين إلى غاية ظهور الموحدين، نجد المبادئ الأشعرية تحرك بعض الفقهاء والقضاة ورجال الخاصة بصفة عامة، مما يوسع الهوة بين العامة والخاصة، فقد كان الغمام المازري من أكبر المتحمسين لمقالات الأشعريين[5]، ويشهد على ذلك القاضي عياض عندما يشيد بمكانته في إفريقية[6].

---

[1]- شارل أندري جوليان، تاريخ إغريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط2، تونس، ص 123.

[2]- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ط1، بيروت 1983، ص 166.

[3]- النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق د/مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء 1984، ص 302.

[4]- نزهة المشتاق، ج1، ص 228.

[5]- السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص 124.

[6]- محمد بن تاويت، القاض عياض، مجلة المناهل، ع19 سنة 1980، ص 8.

وأكد الأستاذ عمار الطالبي انتشار المبادئ الأشعرية في أوساط الفقهاء وعلى رأسهم الإمام ابن العربي (ت 543هـ/1148م) يظهر ذلك واضحا في كتابه العواصم من القواصم[1].

لقد عمد ابن تومرت على وضع قواعد عمل لتأسيس أدوات الصراع السياسي المنتظر، بعد أن فهم جيدا طبيعة البيئة الدينية لسكان بلاد المغرب، وتيقن من قوة تعصب المفاهيم السائدة في كل ناحية، وكان أول عمل قام في أثناء عودته من المشرق هو النزول إلى العوام، وتلقينهم المبادئ العامة للأشعرية[2].

يظهر من خلال السياق العام للأحداث أن ابن تومرت كان يهدف إلى إرباك الوضع العام وإبعاد العامة من الناس عن السلطة الحاكمة.

لذلك سارع المرابطون إلى مناقشة مسألة جواز أو عدم إطلاع العامة عليها، وأفضى النقاش بعلماء السلطة إلى ضرورة إخراج ابن تومرت من الحواضر حتى لا يفسد عقول العامة، حسب ما صرح به عبد الواحد المراكشي[3]، وأكد البيدق هذا التوجه العلمي حيث يقول: "إنه مر على ستة مواقع أو قرى صغيرة وبدأ يفظ القبائل ويدعوهم للخروج على السلطة المرابطية"[4] التي عجزت عن إصلاح العادات العادات القديمة المناهضة للشريعة، ولمح إلى نشر عقيدة الأشعرية.

لقد كان ابن تومرت يدعو إلى إصلاح المجتمع ليستقيم أمر الدين الذي يقوم أساسا على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى يتجنب مواقف شيوخ القبائل

---

[1]- آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، ش، الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1957، ص 100.

[2]- مجهول الحل الموشية ص ص 109، 113، 154.

[3]- المعجب، ص ص 161-169.

[4]- السابق، نفس الصفحات.

المشكلة للوسط الديني، لم يعلن موقفه من المفاهيم الدينية المنتشرة في المجتمعين الحضري والريفي، وإنما ركز على إظهار المفاسد الكبرى التي كرسها نظام المرابطين، حيث انتقد العلماء وحملهم مسؤولية تعاطي الناس المحرمات.

بعد أن لاحت بوادر نجاح دعوة ابن تومرت، راح يعزف على وتر العصبية القبلية إذ التفت إلى قبيلة مصمودية البربرية التي ينتمي إليها، وذكرهم بأوضاعهم التاريخية، موضحا لهم الأوضاع الجديدة التي تتطلب التعاون والدفاع عن كيان القبيلة التي اضطهدت من قبل المرابطين سابق، وقال لهم: "فطالما كنتم في أيام زناتة يأتي الرجل على داره فيجد الزناتي بأمساك فرسه على باب الدار فما شبعتم الخبز إلا في أيامنا لا كسبتم المال إلى في دولتنا"[1].

ولما اتضح لابن تومرت أن دائرة الأتباع توسعت وكراهية الناس للمرابطين اشتدت أخذ بأساليب مدروسة ومحسوبة تتراوح بين اللين والشدة لأجل إشعارهم بضرورة حفظ المشروع[2].

وعليه فقد تعاملت معه العناصر المكونة للبيئة الدينية لما تيقنت من أن مذهب ابن تومرت لا يؤيد مفاهيم أخرى قد تكون معادية لها، ومعلوم أن ابن تومرت جمع في مذهبه مشارب من المذهب المالكي، والشافعي، ولم يكن معتزليا أكثر منه أشعريا ولا ظاهريا. فقد كان يظهر شيعته أو خارجيته أو اعتزاله أو أشعريته بقدر ما تمليه الظروف والمواقف السياسية، لا أكثر.

[1]- البيدق، أخبار المهدي، ص 114.

[2]- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 177-180.

مرحلة التأسيس للصراع السياسي:

بعد أن توترت واضطربت أحوال المجتمع حضره وريفه، وانقسم الناس بين مناصر لدعوة ابن تومرت ومتحفظ عليها وبين السلطة المرابطية ومؤيديها توجه إلى تعبئة الناس انطلاقا من طبيعة الذهنية المغربية المنجذبة بقوة نحو الغيبيات والمقدسات، فراح يطرح أفكارا مناسبة لما يتطلبه الوضع، مثل إطلاق الموحدين على أنصاره وأتباعه لما رآه من رغبة البربر في التوحد، وبذلك يزيد من عدد مناصريه، ويبطل إدعاء خصومه الذين اتهموه بالخارجي[1].

وبعد ذلك نظر ابن تومرت إلى العناصر المكونة البيئة الدينية المغربية خلال دعوته ولما تيقن من وجود جمهور عريض يكتم تشيعه ويتطلع إلى إعلان ذلك حتى رآى الظروف مناسبة، ذلك أدى إلى إعلان ابن تومرت مهدويته لا لشيئ وإنما لاستقطاب المزيد من العناصر البربرية المتعاطفة معه، ويبدو أنه كان مضطرا من وجهة النظر السياسية لإعلان ذلك تحقيقا لأهدافه المستقبلية وتخطيا للعراقيل المتوقع ظهورها في تلك البيئة الدينية التي تحمل مفاهيم دينية غامضة ومغرضة[2]. هذا من جهة ومن جهة أخرى ثانية ليطمئن أهل الشيعة وهم أكثر أنصار دعوته[3]. وحتى لا يغضب أهل السنة راح يعطي صورة مغايرة لما عرف عن عصمة المهدي في المعتقد الشيعي، فقد أخذ محتوى العصمة من رأي أهل السنة للإمامة، الذين يشترطون العلم والعدالة.

---

[1]- السابق، ص ص 186.

[2]- عاشم العلوي، حركة المهدوية في المغرب الإسلامي، مجلة كلية الآداب بفاس، ع 10، سنة 1989.

[3]- النجار، المهدي بن تومرت، ص 252.

وهكذا تمكن ابن تومرت من تحييد العناصر غير المؤيدة لدعوته على الأقل[1] ولم يبق أمامه غير المرابطين المجسمين حسب أدبياته المذهبية الأمر الذي دفعه على الانتقال إلى مرحلة أخرى تمثلت في اتخاذ المبادرة العسكرية ضد المرابطين، ونقل ميدان القتال إلى مناطقهم بين سنوات (518-523هـ، 1123-1128م)، ولم تدم مدة بقائه بعد ذلك طويلا إذ وافاه الأجل بعد معركة البحيرة سنة 524هـ/1129م بثلاثة أشهر.

الصراع السياسي الداخلي:

بعد وفاة المهدي ابن تومرت تأكد أن اقتبس فكرة الإمامة المهدية لضرورات السياسة وذلك يرجع للوصية التي تركها فيما يتعلق بخلافة عبد المؤمن بن علي، والتي جاء فيها: " وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله..."[2] وهذا على الرغم من وجود ثلاثة إخوة ذكور للمهدي ابن تومرت وهم شقيقه أحمد، وعيسى وعبد العزيز لوالدته[3].

ومع الوصية ظهرت مناقشة حادة على قيادة الحركة الموحدية، ولم يمنع تطور الصراع على قتال سوى الاختفاء خلف المقدس والأسطورة، فقد أشار بعضهم إلى أن ابن تومرت كان قد تنبأ بخلافة عبد المؤمن له عندما كانا بملالة[4]، ودعم البيدق هذا التوجه بقوله: "الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره وأقبل نحو المسجد، وركع ركعتين ثم

---

[1]- هاشم العلوي، السابق، ص 189.

[2]- المراشي، المعجب، ص 287.

[3]- يقول ابن القطان: إخوته رضي الله عنه عيسى وعبد العزيز لأب، وأحمد الكفيف وأخته زينب والأخت الأخرى لأب...نظم الجمان، ص 74.

[4]- ابن أبي زرع، روض القرطاس مصر 179، 180، 183.

قال، الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر وما النصر إلا من عند الله..." يصلكم غذا طالب طوبي لمن عرفه وويل لمن أنكره[1].

لقد مات المهدي ابن تومرت وأخفِيَ خبر وفاته على الموحدين حتى لا ينفرط عقد الحركة الموحدية. وعمد المقربون إلى إيهام الناس بأنه مريض، وتصنعوا استشارته وتلقي أوامرِه، وهؤلاء النفر هم، عبد المؤمن بن علي، وإسماعيل إيكيك، وعمر بن عبد الله أزناك، وهم من أهل العشرة، وأبو محمد وأسنار من أهل الدار وزينب أخت ابن تومرت[2]، واستمرت الحال إلى سنة 527هـ /1132م وكان تسيير شؤون الحركة الموحدية خلال هذه الفترة جماعيا مع تفويض القيادة لعبد المؤمن[3]، وتجمع الروايات التاريخية على أن سائر الموحدين قد بايعوا عبد المؤمن وتسمى منذ سنة 528هـ/1133م بأمير المؤمنين[4]، وهكذا نستنتج أن الموحدين لم يطبقوا نظرية السلطة السياسية من فكرة الإمامة، فقد خرجت السلطة من عقب الإمام، وانتقلت إلى أبعد من ذلك حيث خرجت من قبيلة هرغة المصمودية إلى قبيلة كومية الزناتية.

بداية الصراع السياسي:

بعد بيعة العبد المؤمن العلنية غادر تينملل متوجها على قلعة تازكورت بدرعة للاستيلاء عليها، لكن بمجرد أن خرج انتهز ابن ملوية الفرصة واتجه نحو أمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي، واتفق معه على مهاجمة تينملل فأمده الأمير بقوة مرابطيه.

---

[1]- أخبار المهدي، ص 14.

[2]- البيدق، السابق، ص 42.

[3]- ابن خلدون السبر، ج6، ص 472.

[4]- البيدق، المقتبس، ص ص 30-31.

ولما وصل إلى مجال قبيلة كنفيسة وجد أحد زعمائها عبد الله وسدرن قد اتفق مع الشيخ أبي سعيد يخلف على محاربة تلك القوة المرابطية، وتم قتله وحملت جثته إل تينملل حيث صلبت[1]، ولعل دافع ابن ملوية للخروج على عبد المؤمن والانضمام للمرابطين، هو أنه كان يرى نفسه أحق بخلافة ابن تومرت في قيادة الموحدين من عبد المؤمن، فهو كان من أهل العشرة، ومن بين كبار قواد الموحدين، وعبد المؤمن نفسه يعترف بأنه كان مرؤوسا له ويسمع أوامره أو على الأقل كان مساويا له في معركة البحيرة[2].

اتساع دائرة الصراع السياسي:

بعد الصراع الذي دشنه أحد أفراد العشرة، ها هو يتسع إلى أقارب ابن تومرت حول السلطة بعد إسقاط مراكش وفتح تلمسان. حيث أمر عبد المؤمن بأن لا تباع نساء بعض المرابطين الذين انظموا إلى الحركة الموحدية مؤخرا وبدأوا في نصرة توجهات الدولة الموحدية. لكن أخوي ابن تومرت عيسى وعبد العزيز أخذا ابنتين كرها على الخليفة[3].

وعندما انتقل عبد العزيز وعيسى برفقة يصلاسن ابن عمهما[4] إلى اشبيليا وبعض مدن جنوب غرب الأندلس كشلب وبطليوس وقادس، انكشف أمرهم حيث توافدت الأخبار المؤكدة بأنهم شرعوا في الاتصال ببقايا المرابطين ونسقوا معهم في حشد المعارضة للدولة الموحدية، وفي هذا الخصوص يقول ابن خلدون: " ... إن قرابة المهدي اعتزموا على الفتك بيوسف البطرورجي صاحب لبلة فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم ووصل يده بالمرابطين الذين كانوا بالعدوة وارتد ابن قسى في مدينة

---

[1]- البيدق، أخبار المهدي، ص 121.

[2]- ابن القطان، نظم الجمان، ص 122.

[3]- البيدق، السابق، ص 38، ابن خلدون، العبر، ج6، ص 478.

[4]- ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص ص 36-37.

شلب، وبعد هذه النتائج المحفزة بالنسبة لأقارب ابن تومرت، عادوا إلى مراكش، وعلى إثر ذلك تبين لعبد المؤمن بن علي استخفاف أقارب ابن تومرت واستهتارهم بالسلطة الموحدية الناشئة التي يقودها عبد المؤمن، وعدوا أنفسهم أولى منه بتلك السلطة لأنهم من أقارب الإمام المهدي ابن تومرت.

ودخل عبد المؤمن في دائرة التربص بهم كما يفعلون، وأصبح كل طرف يحاول القضاء على خصمه، فعبد المؤمن يسعى جاهدا لتأكيد وتثبيت السلطة في ذاته، وأقارب ابن تومرت يحاولون استردادها منه، فكان لا بد أن يدخل الطرفان في صدام مباشر خاصة وان دولة الموحدين بدأت تتذوق حلاوة النصر بعد ما بسطت نفوذها على أقاليم المغرب الأقصى وجزء كبير من الأندلس واتجهت نحو المغرب الأوسط.

لقد قاد عبد المؤمن بن علي جيشا نحو المغرب الأوسط سنة 546هـ/1151م فدخل جزائر بن مزغنة صلحا ثم انتقل إلى بجاية حيث انتزعها من بني حماد سنة 547هـ/1152م، ثم عاد إلى مراكش بعد أن مكث ببجاية أزيد من شهرين[1] حيث رتب الأوضاع، وحذر القبائل العربية من عواقب الشغب وفوضى العصيان ومع ذلك فإنهم استغلوا عودة عبد المؤمن بن علي إلى مراكش وأخذوا يجمعون القوائم ويعارضون السلطة المحلية، الأمر الذي دفع عبد المؤمن بن علي إلى تشكيل جيش من الموحدين بقيادة صهره عبد الله بن وانودين ويصلاسن بن المعز قريب ابن تومرت، وبهذا تكون الفرصة قد أتيحت ليصلاسن الذي خذل عبد الله ابن وانودين وتركه في المعركة وحيدا يواجه المصير المحتوم حيث هرب عنه وأفرده للعرب فقتلوه[2].

[1]- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 192-193.

[2]- البيدق، أخبار المهدي، ص 74.

لقد فهم عبد المؤمن بن علي الرسالة بسرعة، وجهز جيشا كثير العدد، وأمر عليه عبد الله بن سليمان وقال له تخيل كيف تأخذ يصلاسن في البحر، وعليه قام عبد الله بتكبيل يصلاسن أثناء عودتهم في البحر، وجاء به إلى سبتة وسجنه ثم أعدمه[1]، ثم وضع عبد المؤمن بن علي أخوي ابن تومرت تحت الرقابة ومنعهما من الخروج إلى أية جهة كانت خارج مراكش[2].

ولما ضاق الأمر بأخوي المهدي حاولا الفرار من مراكش، لكن واليها من قبل عبد المؤمن الشيخ أبو حفص بن تفراجي امتنع عن مساعدتهما، فقتلاه الأمر الذي أثار حفيظة إدارة المدينة التي سهلت الأمر لسكان مراكش فقتلوهما مع عبيدهما[3]، وتابع عبد المؤمن بن علي أصحاب أخوي ابن تومرت بعد أن اكتشف المراسلات التي كانت بينهم وبين أقارب ابن تومرت، وبلغ عدد الذين شملتهم هذه الحملة التطهيرية ثلاثمائة كان فيهم خمسة رجال من أعيان الحضر[4]. وتصور إحدى الرسائل الرسمية[5] عنف رد فعل عبد المؤمن ورغبته في اتصال شنافة أي معارضة، وقد وقعت هذه الأحداث كلها سنة 549هـ/1154م.

الصراع بين عبد المؤمن وأهل الخمسين:

كان لمحاولة عبد المؤمن بن علي استمالة القبائل العربية أثر في بعض الزعامات القبلية البربرية، إذ خشيت أن تتقوى وتتوسع سلطته، فقامت ضده وتمثل هذا السلوك في

---

[1]- السابق، ص 75.

[2]- ابن خلدون، العبر، ج6، ص 234.

[3]- البيدق، أخبار المهدي، ص 51.

[4]- السابق، ص 79.

[5]- مجموعة رسائل موحدية، العزاوي، ج2، ص47

موقف شيخ عائلة توندوت من قبيلة هسكورة السابقون إلى الانخراط في الدعوة الموحدية وهو أيضا ابن أحد الأعضاء "هيئة الخمسين" المسمى أبو بكر بن توندوت[1] وهذا ما يستنتج من إحدى الرسائل التي وجهت إليه من طرف ابن عبد الحميد كاتب عبد المؤمن يحاول من خلالها ثنيه عن المعارضة والعودة على صف الخليفة، وقد عرض عليه العفو الخليفي[2]، وما نعرفه عن قبيلة هسكورة هو أنها كانت من بين القبائل التي اتصلت بعبد المؤمن سنة 552هـ/1157م، خلال جولته ببلاد السوس وأعلنت "توبتها" عن الخروج على سلطته[3]، وهكذا تم لعبد المؤمن القضاء على حركات المعارضة الخطيرة، حيث جاء في رسالة الموحدين: "و لما نازلنا على مرحلة من آنسة عمرها الله وأوفى وفد جزولة وهسكورة وقبائل الكست من شيوخهم وأعيانهم وأهل الحل والعقد منهم مست أيدي المِنّة على ما كان عندهم من الشقاق والنفاق فوصلوا تائبين نادمين[4].

ومن جهة أخرى دخل شيوخ المتصوفة بعد ثورة المريدين التي حدثت سنة 539هـ/1144م في علاقة مع الموحدين ثارة تكتسي طابع التحالف وأخرى التنافر والاصطدام المسلح إلى أن تمكن الموحدون من فرض سيطرتهم.

وبعد سقوط مراكش في أيدي الموحدين قامت ثورة أخرى في المغرب الأقصى انطلاقا من منطقة ماسة المترامية الأطراف، ويظهر أن زعيم هذه الثورة كان ذا منحى صوفي هذه الثورة أقلقت الموحدين لفترة إلى أن تمكنوا من القضاء عليها في النهاية.

---

[1]- أحمد عزاوي، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية، ج1، ص 47.

[2]- السابق، ج2، ص 25-26.

[3]- السابق، نفس الجزء والصفحة.

[4]- مجموعة رسائل موحدية العزاوي، ج2، ص 88.

وتبقى الأجوبة عن التساؤلات المتعلقة بتحول المتصوفة من الممارسة الروحية الفردية إلى طموح جماعي للوصول إلى السلطة، محل اجتهاد الباحثين، وزيادة على ذلك فإن الذي يجب التأكيد عليه هو أن الهدف هنا ليس البحث عن جذور التصوف في بلاد المغرب، بل تلمس بعض نقاط التحول خلال القرن السادس الهجري عندما كانت العامة تلتجئ إلى المتصوفة كلما تعرضوا لجور العمال أو أحسوا أنهم سيتعرضون له.

وقد أورد ابن الزيات روايات متعددة في هذا الموضوع[1] ولعل موقف المتصوفة من عامة الناس الأمر الذي دفع بعض المتصوفة ذوي الطموح السياسي إلى أن يستغلوا هذه الوضعية، ويخرجون عن أموالهم للعامة ويعدونهم بالأموال الطائلة[2].

وقد ثبت توظيف التصوف في الفكر السياسي، فقضية الولاية والغمامة في الصراع السياسي بين المتصوفة والمرابطين، وبين المتصوفة والموحدين فابن الخطيب يقول عن ابن قسي: "وابنتي —رابطة بقرية– كان يجمع بها دائرته التي دارت بها المنطقة دائرة السوء وادعى الولاية[3]".

ترسيخ الخلافة الوراثية:

في سنة 550هـ/1155م جمع عبد المؤمن صغار الطلبة الذين كانوا يعرفون بالحفاظ من كل من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان، وكانوا قد اختيروا من أبناء أسر معروفة ضمهم إلى من انتخبهم من أبناء قبائل الموحدين، فبلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف فرد[4]، وأنشأ عبد المؤمن لهؤلاء الطلبة مدرسة تكوين الإداريين، فبالإضافة على قراءة متون ابن

---

[1]– التشوف، ص ص 130–131.

[2]– ابن الزيات، السابق، ص 459.

[3]– أعمال الإعلام، ص 249.

[4]– مجهول الحلل الموشية، ص 150.

تومرت كانوا يمارسون أنواعا من الرياضة، فقد كان عبد المؤمن يؤهلهم لتولي الوظائف الإدارية في البلاد ويؤصل فيهم الولاء للدولة، فقد قال صاحب الحلل أنه قصد من وراء تكوينهم هذا سرعة الحفظ والتربية على ما يريد[1] وقد كان من بين هؤلاء الحفاظ ثلاثة عشر من أبناء الخليفة تكونوا على نفس الطريقة.

يدخل هذا التحضير في أهداف تركيز السلطة في أيدي عبد المؤمن ومنع أية محاولة لانفصال أية جهة من جهات مجال نفوذه أو خروجا عن مراقبته.

لقد أسند حكم الأقاليم التي كانت تحت سلطته إلى أبنائه[2]، وهذا طريق عجيب في التحايل للوصول إلى الحكم.

لقد عين أبا محمد عبد الله على بجاية وأحوازها، وأبا سعيد عثمان على سبتة وطنجة والجزيرة الخضراء، وأبا الربيع سليمان على تادلة، وأبا زيد على السوس، وقد تمت هذه التعيينات خلال سنة 551هـ/1156م، وبهذه الإجراءات تحولت الحركة الموحدية إلى دولة لا يختلف نظامها السياسي عن النظام السياسي لسابقتها الدولة المرابطية في شيء، حيث أصبح نظام ولاية العهد وراثيا بإعلان أكبر أبناء عبد المؤمن محمد واليا للعهد ومبايعته بذلك رغم أنه لم يتمكن من خلافة والده بعد وفاته، حيث انتقلت الخلافة إلى أخيه يوسف.

وهكذا يتجلى أن فترة الانتقال بين المرابطين والموحدين لم تأت بجديد من حيث الممارسة رغم ما يظهر من اختلاف على المستوى النظري بين النظام السياسي المرابطي المبني على ولاية العهد وتوريث السلطة، وبين النظام السياسي الموحدي المرتكز على سلطة الإمام التي تورث في الأعقاب، حسب المصدر الشيعي الذي اقتبس منه ابن تومرت، لكن

[1] – السابق، نفس المصدر والصفحة.

[2] – النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ص 419.

المفارقة هي أن ولاية العهد وتوريث السلطة عند الموحدين لم يكن تطبيقا للنظرية، بل تكرسيا للواقع وبذلك عاد المغاربة إلى ما كانوا عليه خلال العصر المرابطي في الممارسات السياسية الفعلية.

لقد انتقل المغرب من شكل نظام أميرية المسلمين التي امتدت سيادتها الجغرافية إلى أجزاء من غرب المغرب الأوسط، وأعلنت الولاء الاسمي للخلفاء العباسيين في بغداد إلى خلافة للمؤمنين في المغرب الإسلامي كله ولم تخف رغبتها في مد سيادتها على باقي شرق العالم الإسلامي وبذلك انقطعت الدعوة العباسية بالمغرب لبني العباس[1].

المصادر والمراجع:

- الإدريسي (الشريف): وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تصحيح ونشر هنري بيريس، الجزائر 1957م.
- ابن أبي زرع الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط، 1973م.
- البكري (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان، الجزائر، 1957م.
- أبو بكر (ابن علي الصنهاجي) المكنى بالبيدق:
- أخبار المهدي ابن تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م.
- المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1971م.
- ابن تومرت محمد: - أعز ما يطلب، نشر لوسياني، الجزائر، 1903م.
- التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد): رحلة التجاني، تونس، 1958م.

[1]- المراكشي، المعجب، ص 297.

– الحسن الوزان (الفارسي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد مجي ومحمود الأخضر، الرباط، 1980م.

– ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، بيروت 1983م.

– الرقيق (إبراهيم ابن القاسم): تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، طبع تونس، 1967م.

– لوتورنو روجي: حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12، 13 الميلاديين، ترجمة أمين الطيبي –ليبيا–، تونس، 1982م.

– ابن سعيد (علي بن سوس): كتاب الجغرافيا، طبع بيروت (د.ت).

– السبكي (عبد الوهاب): طبقات الشافعية الكبرى (42)، ط2، بيروت، (د.ت).

– شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، 1983م.

– ابن عذاري: البيان المغرب، تحقيق ومراجعة س، كولان وليفي بروفنسال، ط2، بيروت، 1984م.

– عبد المجيد النجار: المهدي ابن تومرت، حياته وآراءه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.

– عز الدين أحمد موس: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ط1، بيروت، القاهرة، 1983م.

– المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أطباء الأندلس والمغرب، ط7، ضبط وتصليح وتحقيق محمد سعيد الويان، ومحمد الوبي العلمي – الدار البيضاء، 1976م.

– مجهول: الحلل الوشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زماحة، طبعة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979م.

– النويري: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984م.